obeikan.com

بصر من حديد!

بقلم: عصام مختار

«النصر عادة.. كذلك الهزيمة للأسف»

فينيس لومباردي

وكأنها كانت دعوة مستجابة؛ ليس بينها وبين السماء حجاب، كنت حينها أشرب قهوتي في مكتبي مُحاطًا بأذرع كثير من القدرة والطمأنينة؛ أمنح وأمنع في مملكتي الناجحة.. أو هكذا ظننت!

لعله الملل من التعود ورتابة الأيام حتى في تحدياتها، فالتاجر مشكلاته معروفة، وما قد يواجه في معترك السوق والسعي، وكنت محصنًا جيدًا فيما بدا لي آنذاك من كل هذا، فلم أكن عملاقًا يُحسد ولا قزمًا يُحتقر! ببساطة، كان كل شيء على ما يرام!

لم يكن ذلك مغريًا في عمق نفسي وعقلي؛ كنت وكأنني أبحث عن تحدٍّ يجعلني أرى الأمور أكثر -إن صح التعبير- إثارة!

حتى أن البعض ممن كانوا حولي وَمَضَوْا بلا رجعة، كانوا يحذرونني من شر أفكاري وما أنا به منادٍ! «انت بتتبطر على نعمة ربنا؟!»

ربـــنا!

هنا يكمن السؤال والجواب في آن! لم أكن من العتاة ولا من أولئك الساهين.. ولم أكن أيضًا حيًّا كما ينبغي ويجب!

لم أكن مناديًا بفقر ولا بمحنة، ولكني أردت أن أرى وجهًا آخر لرحمة ربي وكونه وصور تصاريفه جل وعلا!

وعكفت أدعوه صادقًا أن يرزقني صدقَ المعرفة بجلاله، وصدقُ المعرفة يكلف كثيرًا!

وها أنا ذا بعد تلك الدعوات المستجابة التي مر عليها قرابة الأعوام الثلاثة تحقق عندي اليقين الراسخ في أنه يرى؛ قريب.. مجيب...

رأيتـه فيـما بـدا للبعـض أنـه نقمـة وخسـارة في حـين بـدا لي كبعـث جديـد، كانـت حاجتـي لنـصر حقيقـي هـي الـزاد والدافـع، فـما ترثـه شيء، ومـا ترثـه وتحافـظ عليـه شيء، ومـا تصنعـه بكلتـا يديـك شيء آخـر مختلـف!

رأيتـه في تحـولي مـن حـارس إلى صاحـب حرفـة، يتقـن كيـف يخلـق مـن العـدم فُرصًـا، ويلتحـف مـن خـذلان الأحبـة ورفـاق السـمعة رداءً للاعتـماد عـلى ذاتـه والتصـبر بمعيـة اللـه!

رأيتـه في الضيـق مـرارًا، فضعفنـا يوحدنـا مـع القـوة المطلقـة، فنلجـأ ونلتجـئ مـرارًا عـلى غـير عادتنـا، فـنرى وجـه الحقيقـة في قدرتنـا عـلى فعـل مـا هـو أكـثر مـن مجـرد الرضـا بحيـاة اسـتُخلفنا فيهـا لنعمـر ونُبهـر ونبتكـر!

كنـت في طمأنينتـي الغابـرة تلـك محسـودًا مغبوطًـا عـلى رؤيـا ضبابيـة ومفهـوم مشـوه للسـتر والرضـا والمنـح!!

وهـا أنـا ذا أنعـم ببـصر مـن حديـد، وأمـن لا يسـاوره خـوف؛ أبتعـد كثـيرًا عـن حـدود أرض الهزيمـة، وأعتـاد النـصر يوميًّـا، بعيـدًا عـن أعـين الحاسـدين أو المعجبـين.. فقلـما يلحـظ النـاس أنـك تـرى اللـه!!